# ما سمعت وما رأيت

## في بلاد السوفيت

### - ٦ -

متحف الصومعة :

يعد متحف الصومعة ( The Hermitage Museum ) أكبر متحف للتاريخ والثقافة والفن في بلاد الاتحاد السوفيتي قاطبة . ولا يقتصر ما يحويه من تحف نادرة من منشأ سوفيتي فحسب بل يتعداه الى تحف من سائر أنحاء العالم يرجع تاريخ بعضها الى ما قبل آلاف من السنين .

ويعود تاريخ تأسيسه الى القرن الثامن عشر والى عهد كاترينا الثانية التي اتخذته داراً لها ولم يكن يسمح لأحد بزيارته ، وأضيف اليه في القرن العشرين جزء جديد عُرف بالصومعة الحديثة ، ومع ذلك فقد ظل عدد الذين يسمح لهم بالاطلاع على ما بين جدرانه محدوداً جداً ، حتى ان حاشية بلاط القيصر لم يكن لكلهم الحق بزيارة قاعات المتحف ، وأصبح الولوج فيه مسموحاً به تحت ضغط بعض المجتمعات الروسية اعتباراً من منتصف القرن العشرين . وظل المتحف حتى سنة ١٩١٤ تابعاً لقصر الشتاء ( Winter Palace ) قصر القيصر مرتبطاً به بممر خاص في جانب الطريق التي توصل بين القصر المذكور ونهر نيفا . وألحق قصر الشتاء بالمتحف اعتباراً من ١٩١٧ كما انه وسع وازدادت محتوياته أضعافاً بما جلب اليه مما كانت تحويه قصور القياصرة من كنوز وتحف من سائر أنحاء البلاد فضلاً عما صادرته الحكومة من تحف أخرى خاصة من قصور الأمراء والطبقة الارستوقراطية التي دالت دولتها .



هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفتحت أبواب المتحف على مصاريعها لجميع الناس بعد ثورة تشرين الأول ، وأنيط بعدة اخصائيين في مقدمتهم الأديب الروسي المشهور ماكسيم غوركي ( Maxim Gorky ) تنظيم المتحف وتنسيقه ، وبلغت تحفه ثلاثة أضعاف ما كانت عليه قبل الثورة إذ يربو عدد المعروضات فيه الآن على المليونين وأضيف اليه أجنحة خاصة خصصت لتاريخ روسيا وثقافتها وثقافة شعوب الشرق وفنونهم . ويشتغل فيه عدد كبير من الاخصائيين في الفروع المختلفة من الفنون والصناعات .

زرت هذا المتحف يوم وصولي الى لنينغراد ( الأحد ١٤ تشرين الثاني ) وبعد أن ذكرت لنا الدليلة لمحة خاطفة عن المتحف بما لا يخرج عما تقدم شرعنا في زيارة قاعاته ولم يتح لنا سوى زيارة ٥٠ قاعة من أصل ٣٥٠ ، واستغرقت زيارتنا ٣ ساعات .

وإن مما يراه الزائر كثرة الوفود التي تؤم المتحف والفئات التي تمثل الجمعيات المختلفة وزمر الطلاب مع أساتذتهم لاطلاعهم على ما يمت بالصلة بالدروس التي يتلقونها [1] إذ باستطاعة الزائر أن يدرس فيه تاريخ الثقافة والفن لشعوب بلاد الاتحاد السوفيتي ، وتاريخ القرون الأولى من العصر الحجري حتى زمننا هذا .

وإن من القاعات التي أتيح لنا زيارتها الأقسام الخاصة بالرومانيين والايطاليين واليونانيين ثم الفرنسيين والهولنديين . ورأينا في القسم المخصص لمصر عدداً من الموميات منها المجرّدة ومنها غير المجرّدة في جانب الصناديق المنضدة والمغلقة التي لما يتم عرض ما تحويه ، ورأيت أوراق البردي وما تحمله من كتابة هيروغليفية بعضها بالخط الأحمر ، وكلا الخطين بالحبر الأحمر والأسود لا يزال محافظاً على لونه .

وفي الأقسام المخصصة بالمجوهرات رأينا الجواهر المصنوعة من الذهب الخالص

(١) ولقد أحصي عدد الزائرين سنة ١٩٥٤ فكان ١,٢٥٠,٠٠٠ وتلقى المتحف ١٢٠٠٠ رحلة وأن ٢٤٠ فئة درست فيه شؤون الأزمنة الغابرة وما يتعلق بها من ثقافة وفن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

والأحجار الكريمة النادرة منها ما كشف في شمال قفقاسية وفي جنوب أوكرانية عدا النماذج المختلفة من الساعات المصنوعة في روسية خلال القرنين الأخيرين .

ونجد بين التحف الشرقية تحفاً قديمة العهد من صينية وهندية وبيزنطية ومصرية وايرانية وتركية واغريقية ورومانية . وقاعات الصور تشتمل على لوحات لأشهر رسامي الغرب والشرق ، وقاعات النسيج يبدو فيها الأنواع المختلفة من المنسوجات قديمها وحديثها ، ويرى الزائر النماذج النادرة من الخزف والعاج والبلور والفضيات والأواني الذهبية .

وانتقلنا من متحف الصومعة الى قصر الشتاء مقر القيصر فيما مضى ويرى الداخل من السلّم الرئيسي الرخامي الذي يحمل طابع القرن الثامن عشر ما في سقفه من نقش بديع وما يحيط بجانبه من تماثيل من المرمر الأبيض النقي ، ولهذا القصر شأن تاريخي مزدوج فهو مقر للقيصر وعنه كانت تصرف شؤون تلك الامبراطورية الشاسعة ، كما ان فيه تم استلام رجال الثورة لزمام الحكم ، وألحق بعدئذ بمتحف الصومعة ، ويعد من أقدم الأبنية في لنينغراد .

فمن قاعاته قاعة العرش الصغيرة ( The small Throne Hall ) وتعرف بقاعة بطرس ( Petrovsky ) تخليداً لاسم بطرس الأكبر الأول ، جددت بعد الحريق الذى انتابها سنة ١٨٣٧ وهي غنية جداً بالنقوش والتماثيل واللوحات . ولا يغمط رجال الثورة حق بطرس الأكبر بل هم يقرون بفضله [1] بتخصيصهم إحدى القاعات لمخلفاته ومصنوعاته التي قيل انه كان يتقن ١٤ صناعة يدوية ، واخرى تمثل لوحاتها العديدة المواقع الحربية التي خاض غمارها في الشمال والجنوب والغرب والشرق ومن أشهرها غزواته في الشمال لاستخلاص البلاد من السويد . ومن المواقع الحاسمة التي خلدت ذكراها باللوحات البديعة موقعة اسماعيل [2] التي يعرض

(١) وإن استبدلوا باسمه وهو مؤسسها اسم لينين زعيم الثورة الأولى .
(٢) وهي قلعة حصينة تابعة لبسارابيا ( Bessaraby ) الرومانية .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

في احدى قاعات قصر الشتاء ما غنمه الجيش الروسي من أعلام عثمانية كثيرة ، وصور القواد الذين اشتركوا في الحرب الوطنية ضد نابوليون .

وقاعة العرش الكبيرة ( Large Throne Hall ) وتعرف بـ ( Georgiyevsky ) من أكبر قاعات قصر الشتاء اذ تبلغ مساحتها على ما قيل ٨٢٠٠ قدماً مربعاً وهي غنية جداً بالتماثيل واللوحات والزينات المختلفة ناهيك بأرضها الخشبية التي صنعت من ١٦ نوعاً من الخشب وفيها ٤٨ عموداً من المرمر بارتفاع ٢٠ قدماً ومحيط ٦ أقدام ، وتضاء بـ ٢٨ مشكاة تحوي ١٥٠٠ مصباح . وكان فيها عرش القيصر الذي نقل الى القاعة الصغيرة ، وفيها خريطة الاتحاد السوفيتي المصنوعة من أحجار أورال ( Urals ) شبه الكريمة ( semi precious ) وقيل لنا ان عدد هذه الأحجار هو ٤٥٠٠٠ نضدت في ساحة لا تتجاوز ٢٧٠ قدماً مربعاً ، وان هذه الخريطة قد عرضت في معرض باريس سنة ١٩٣٧ وفي معرض نيويورك أخيراً . وهي توضح التقسيمات الإدارية لبلاد الاتحاد ويظهر فيها ٤٥٠ بلدة كبيرة وما تحويه البلاد من بحيرات وأنهار وجبال .

## متحف لومونوسوف :

وهو متحف العالم الروسي الشهير ( Lomonosov ) وقد أشرنا في المقال السابق الى إطلاق اسمه على جامعة موسكو[1] ويعده القوم رائد الأدب الروسي الحديث[2] . رأينا في هذا المتحف ما يبين حياته منذ نعومة أظفاره حتى أواخر

(١) انظر المجلة مج ٣٣ ص ٩٣ .

(٢) يعد في الطبقة الأولى بين أدباء الروس وعلمائهم ولد سنة ١٧١١ وتوفي سنة ١٧٦٥ رُوي عنه أنه جاء من مسقط رأسه في أقصى الشمال إلى موسكو مشياً على الأقدام ودرس في جامعتي كيف وبطرسبورغ وزار ألمانيا ، عين أستاذاً في بطرسبورغ ثم مديراً لاحدى الكليات فرئيساً للجامعة ومستشاراً للدولة ، ومن أشهر مؤلفاته تاريخ روسيا وقد نقل الى عدة لغات والنحو الروسي في جانب الكتب الأدبية العديدة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

أيامه بلوحات وتماثيل في جانب أوراقه الشخصية وكتبه ومخطوطاته ويعد أول من درس الكيمياء في بلاد روسيا ، ومن العلوم التي كان يتقنها علم الفلك والمعدنيات وسواها .

## متحف نشوء الإنسان :

وهو المعروف بـ ( Anthropology ) وفيه شاهدنا النماذج المختلفة للإنسان البدائي وحيوانات العصور السالفة والتي انقرضت تماماً . وقد قال لنا دليلنا ـ وما أظن هذا إلا من قبيل الدعاوة ـ : إن ما توصل اليه علماء الاتحاد السوفيتي ان الأقوام المختلفة متساوية في خلقها وليس ثمة فوارق بينها .

ورأيت فيما يدعى بمتحف علم الأقوام أو الاثنولوجيا ( Ethnology ) ما يمثل حياة الأقوام المختلفة في الملبس والعيش والحياة الاجتماعية ، ولوحة تصور حفلات الطائفة الجعفرية في شهر المحرم ، وصورة تمثل سيدنا الحسين وقد فصل رأسه عن جسده والسهام التي تخترقها الثقوب التي تبدو في الجلد ، وما كان يستعمل في بلاد الاتحاد السوفيتي من آلات للتعذيب بشكل مجموعة فريدة في بابها .

ومن أطرف ما رأيناه مجموعة المسوخ [1] ( Monstrus ) أمر بجمعها وعرضها في المتحف بطرس الأكبر إذ أصدر مرسوماً أوجب فيه أن يسلم الى المتحف كل مسيخ في البلاد كافة ، وبذا بلغت المجموعة ( وأظنها الفريدة في بابها ) حداً نادر الأمثال ورأيت بين ما هو معروض منها ما لم تقع عيني على صورة له في الكتب التي اطلعت عليها . ويبدو أن صداقة القيصر لأحد الأطباء الدانيمرك أوحت اليه بهذه الفكرة الطريفة .

---

(١) جمع مسيخ والمسيخ لغة المشوّه الخَلْق وتدعوه العامة بالعُجْبة وهو أن يحمل الجنين شذوذاً بالغاً في تكوين بدنه وأعضائه وأحشائه . ويدعو بعضهم المسيخ المشيأ فقد جاء في اللسان : والمشيأ المختلف الخَلْق المخبّله القبيح .

قال : فطيء ماطيء ماطيء ؟ شيأم إذ خَلَقَ المُشَيّء

وقد شيأ الله خلقه قبحه . وقالت امراة من العرب :

إني لأهوى الأطولين الفُدْبا وأبغض المشيئين الزّغبا

ولكاتب المقال بحث مستفيض عن المسوخ في كتابه فلسفة الطب .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ورأينا في المتحف مجموعةً من آلات الجراحة وطب الأسنان قيل لنا ان القيصر قد صنعها بنفسه ويروى أنه أنقذ حياة ٢٧ جندياً من بين ٣٠ جندياً خاط لهم جراحهم وانه كان يقدم على إجراء بعض العمليات الجراحية لأفراد الشعب ولا عجب بعد أن ذكر لنا أنه كان يتقن ١٤ مهنة .

ورأيت أخيراً لوحة كبيرة تمثل فيها حياة الهنود الحمر في أمريكا الشمالية رسمها أحد فناني الروس إبان احتلال القوم لتلك الأصقاع ورووا لنا وصولهم حتى سن فرنسيسكو .

## مرصد بولكوف :

وقد زرناه في اليوم السادس عشر من تشرين الثاني . وبولكوف اسم ناحية تبعد عن لينغراد ٢٠ كيلومتراً قطعناها بنصف الساعة لكثافة الثلج الذي كان يستر أديم الأرض . وكانت درجة الحرارة في المرصد — ٥ مئوية والمرصد مبني فوق هضبة مرتفعة حتى ان مستواه يوازي قبة كنيسة اسحق الكائنة في جوار فندق استوريا .

وقد استقبلنا إثر وصولنا الى المرصد مديره الذي يتقن اللغة الفرنسية وزار الولايات المتحدة ومما قال لنا ان تأسيس المرصد يرجع الى سنة ١٨٣٩ تهدم في الحرب العالمية الثانية على بكرة أبيه وجدد بناؤه بعدها واحتفل بتدشينه في أيار سنة ١٩٥٣ بعد أن أضافوا الى المباني السابقة قاعة كبيرة للمحاضرات .

وقد قيل لنا ان هذا المرصد يعد الأول في العالم لا من حيث اتساعه فحسب بل لكثرة ما يحويه من أدوات حديثة بعضها مبتكر ولموقعه الجغرافي الممتاز ، ويعنى فيه بوجه خاص برصد نجمة القطب بتسجيل حركتها على مسجل خاص (وقد رأينا النجمة وما سجل من الحركة) . وزرنا الجزء الخاص بضبط الوقت والساعة بالآلات الكهربائية والضوئية ، وزرنا المكان المعد لتصوير النجوم والكواكب تصويراً فوتوغرافياً . وقد استغرقت زيارتنا هذه ٣ ساعات ونيفاً .

( للبحث صلة ) الدكتور حسني سبح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net